أثر البنية الصرفية المنزاحة دلاليا في الخطاب الشعري

(شعر همدان في الجاهلية والإسلام إنموذجاً)

ولاء جبار سفيح

أ.م.د. نوري حساني علوان

المقدمة :

نبتدأ من اسم الموضوع انزياح الدلالة أو تغيُّرها في البنية الصرفية،فالانزياح يبحث في أشكال هذا التغير والتوسع الدلالي،وأسباب نشوءه،والعوامل التي تتدخل في حياة الألفاظ وموتها أو إنقراضها، وهذا الأمر هو أهم ما شغل بال علماء اللغة قديمهم وحديثهم،على إعتبار أن النص كائن حي صادر ونابع من كائن حي أيضاً فهو ينمو بنموه و ربما يموت بموته*،وكلما تطوَّر الانسان تطورت معه الأفكار التي يحملها ويتبناها،فهو في تطور دائم غير منقطع عن العلوم والمعارف المكتشفة في أي بلد من بلدان العالم،وعلينا ألا ننسى أن النص أو الخطاب موجه إلى مخاطب حقيقي وربما يكون مظنوناً غير حقيقي وهمي،يتقصد الشاعر في عدم بيانه وإظهاره للعلن ،وعموماً أغلب الأشعار يرافقها تطور ونمو دلالي،يحصل من خلال التفاعل اللغوي فيمَ بينهما،أي ما بين كاتب الخطاب ومتلقيه على حد سواء.

والإنزياح الدلالي ذو جذور لغوية،فكلاهما يؤدي إلى الآخر،فهو يقوم بخلق آثار بلاغية على مستوى النصوص الإبداعية،أي يتضمن نسقاً مزدوجاً من الدوال والمدلولات، فالدوال الأولى تعمل على توليد مدلولات مباشرة تصريحية مادية،في حين الدوال الثانية تؤدي مدلولات غير مباشرة إيحائية معنوية و روحية مستوحاة من النظام الدلالي الأولي،وموضوع تغيُّر المعنى وتطوره، وأشكال هذا التغير أو التوسع،وأسباب نشوءه،والعوامل التي تتدخل في حياة الألفاظ وموتها أو إنقراضها،هو أهم ما شغل علماء اللغة قديمهم وحديثهم،على إعتبار أن النص كائن حي صادر من كائن حي أيضاً فهو ينمو بنموه و ربما يموت بموته*،وكلما تطوَّر الانسان تطورت معه الأفكار التي يحملها ويتبناها،فهو في تطور دائم غير منقطع عن العلوم والمعارف المكتشفة في أي بلد من بلدان العالم،وعلينا ألا ننسى أن النص موجه إلى مخاطب حقيقي ومظنون،والنمو يحصل من خلال التفاعل اللغوي(١)،

نشير أول وهلة إلى أهم الأراء العربية القديمة،رأي سيبويه ت(١٨٠)هـ،في "باب إستعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى" فالإنزياح الدلالي عنده هو نوع((من الإتساع والمجاز في الكلام وذلك لعدم تجسيده للدلالات بهيئتها الحقيقية،فالإنزياح يبتعد بالمعنى عبر تركيب خاص إلى معنى سامٍ ينزاح عن الدليل النظمي المعياري))(٢)ومن مزايا الإنزياح القائم على المجاز أيضاً أنه((لايخاطب العقل ولكنه يثير المشاعر التي يطغى دورها على دور العقل ويقلل من سلطانه ... و{يحرص}على التحسين الإسلوبي،و{ التعاطي}المرهف والفني مع بناء التركيب وتنظيم المعجم،كلها عوامل تجعل لغة الشعر جاذبة للمتلقي ومخترقة لكيانه،وذات تأثير على مشاعره ومواقفه))(٣)،إذاً المجاز يقوم بوظائف شتى؛لأنه من أفضل الوسائل البيانية،وهذا النقل المفاجئ للألفاظ،يكون تحت تأثير خاص، وأجمعوا العلماء أن المجاز أبلغ من الحقيقة،وفي طليعة العلماء العرب الذين عُنوا بقضية اللفظ وتطوره هو أبو حاتم الرازي ت(٣٢٢)هـ،في كتابه الموسوم بـ "الزينة في الكلمات الإسلامية العربية"، والسيوطي ت (٩١١)هـ في كتابه المزهر،إذ عقد فصلين مهمين في تغير الدلالة،الأول: العام المخصوص، والثاني: فيمَ وضِع خاصاً ثم أُستعمل عاماً(٤).

وبالإشارة جدير هو أن جل العرب أنصب إهتمامهم قديماً على الأشكال اللغوية،وليس على المعاني المتوالدة،ولكن هذا لايمنع من بعض الإشارات،التي بمثابة النصائح لناظم الشعر، منها إشارة أبو هلال العسكري ت(٣٩٥)هـ،((وإذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك،وأخطرها على قلبك،واطلب لها وزناً بتأنّي فيه إيرادُها وقافيةً يحتملها، فمن المعاني ما تتمكّن من نظمه في قافية ولا تتمكّن منه في أخرى، أو تكون في هذه أقرب طريقاً وأيسر كلفة منه في تلك،ولأن تعلو الكلام فتأخذه من فوق فيجئ سلساً سهلاً ذا طلاوة ورونق خير من أن يعلوك فيجئ كزّاً فجّا ومتجعداً جلفاً))(٥)،وعند قراءتنا لما سبق،يبدو أن أبا هلال العسكري قد استحضر في ذهنه،كل المعاني المشكلة للخطاب،فبعضها تستحق أن تكون في القافية،وليس في مكان أخر،وهذا يدل على الإهتمام الكبير في نظم القوافي،لأنها الشرط الثاني لإنشاء الشعر.

إلى جانب هذا قول عبد القاهر الجرجاني ت(٤٧١)هـ((إن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق))(٦)،هذه الرؤية التي أنطلق منها الجرجاني،جعلت من البلاغة العربية ترتدي حلة جديدة،كونه في طليعة المعارضين للمعايير((الجاهزة السابقة للنصوص،وبذلك أختلف في فهمه للمعنى وعلاقته باللفظ..فيما يتعلق بترتيب المعاني وترتيب الألفاظ والعلاقة بين هذين الترتيبين أثناء عملية التأليف))(٧)،فعملية الإبداع،ومنذ القدم تعوّل كثيراً على القوالب الجديدة،المخالفة لما هو ثابت ومكرر،فالمبدع يمزج في لغته الخاص بالعام،والذاتي بالموضوعي،على نحو متميز يحمل بصمة المبدع،وبهذا ينقل إلينا فكره وخياله وعواطفه،بطريقة

مفيدة وممتعة في آن واحد،بإعتماده على الحدس والإلهام والذوق وكل ما يشكل لنا نبضاً للنص،وحيويته وبهذا يبعده عن الآلية والروتينية والجفاف،وهذا يُحيلنا إلى الغاية الأساسية من النظم ليس التوالي،بل التناسق الدلالي وتلاقي المعاني،بمعنى إيراد المعنى الحسن والمقبول في اللفظ الحسن والمُتقبَل من الآخرين أيضاً(٨)،وجدير بالإشارة هو أن مراجع معاني الألفاظ التي يُعبر بها عن الأشياء،((ثلاثة هي: المعنى، والتفسير، والتأويل.وهي وإن اختلفت فإن المقاصد بها متقاربة))(٩).

أما نظرة المحدثين لدلالة الشعر فنشير بداية إلى" رامبو"، مضمون قوله: والسؤال الشعري الوحيد الذي ينبغي علينا أن نسأله هو : " من يفهم ما أقول" ؟، وعلى ما يبدو أن طبقة معينة من شريحة المجتمع يمكنها أن تعي وتفهم ما يقوله الشاعر رامبو أو أي شاعر آخر فهماً كلياً لا مقابل أو مضاد له؛ لأن الشعر هو "لغة" واللغة لا تُعد كذلك إلا إذا كانت تُعنى أو تقول... وفي طليعة الفرضيات التي ترى أن شعرية القصيدة هي ناتج معناها، ولكن هذا لايمنع من أن بعض الأعمال الإبداعية مبهمة المعاني،وهذا ما لاحظه " أراجون" الذي يرى أن معيار الشعر المميز الحديث هو الإبهام؛ ولكن يبقى الشعر الكلاسيكي في مجمله قابلاً للتفسير، وما ينبغي الإنتباه إليه هو أن بعض المقطوعات الشعرية تحمل ذات المعاني إلا أن الطاقة الشعرية تكون حاضرة في هذه وغائبة في تلك، والسبب هو الإسلوب غير المباشر الذي يُبيّن العلل والأسباب وراء ورود هكذا كلمات مبسطة؛ لكنها تحمل إيعازاً عالياً من الدقة.هذا من ناحية وعلينا أن نأخذ بالحسبان الفكرة الحالية الرائجة وهي تعدد المعنى للنص الواحد، والتي ترتبط بالشاعرية والأدبية بوجه عام،مع التأكيد على أن الكلمة الشعرية لا تعمل على تغيير محتوى المعنى،وإنما تغير شكله،ومن ثم تعبُر من الحياد إلى التكثيف والعمق، والشاعر بالمجمل لا يصنع شيئاً على الإطلاق إلا على وفق ما يراه(١٠)،

فالشعر إذاً((لاينبغي... أن يتشكل من كلمات، ولكن من أحاسيس، وكل الكلمات تمحى أمام الأحاسيس...الشعر يقوم على الإبداع وينبغي أن يؤخذ داخل النفس الإنسانية كما هو، في وضمة صافية خالصة، بقدر ما يتغنى بها ويلقي الضوءَ عليها، فتشكل متعة الإنسان، هنا يوجد الرمز ويوجد الإبداع وتأخذ كل كلمة معناها...وحقيقة إذا كانت الأحجار الكريمة التي نتحلى بها لا تمثل روحاً حلوة فليس من المشروع أن نتحلى بها))(١١)وهذا هو رأي رائد الشكلية "مالارمية"! .

وما ينبغي التأكيد عليه هو أن عدداً من القراء لا تكون لديهم ردة فعلٍ قوية إتجاه بعض الألفاظ المختلفة إختلافاً كبيراً عن لغتهم! وهذا يعتمد على زمن كتابة الخطاب الشعري فهو أمر في غاية الأهمية لأن الزمن كفيل بتطوير قدرات المبدع،وإيصاله إلى مرحلة يتمناها،فمقدرة الشاعر الإبداعية تكون عادة مرهونة بالزمن،فالارتجال

لايخرج الخطاب كما يرغب ويتمنى،وهذا ما تطفَّن إليه الكثير من الشعراء بعد برهنة بإعترافات صريحة... فمسألة تغير معنى الكلمة عبر الزمن من الحقائق المقررة لدى علماء اللغة المحدثين، والتغير الذي يصيب دلالات الألفاظ يكون بصورة تدريجية، فينقلها من طور إلى طور آخر،و أول من حدّد أسباب تغيّر المعنى في عصرنا الحديث هو العالم اللغوي" إنطوان مييه" ومع هذا فهي ليست جامعة مانعة بأي حال من الأحوال،وهذا ما أكدّ عليه"أولمان"(١٢)،

وأشاطره الرأي لأن هناك أسباباً أخرى قد تكون دينية وثقافية وغيرها.وفي ظل هذه الأسباب الكثيرة والمتنوعة يكون المبرز والمظهر للمعاني هو((شدة الشعور بالحادثة،وجيشان العاطفة حول الموقف،والسبب في إيجاد المعنى المبتدع،قوى كامنة في النفس تترجم عنها المعاني المحمولة على الألفاظ والتراكيب، وهذا يُنبئ عن الصلة القوية بين المعاني النفسية (القائمة في النفس) والمعاني البارزة التي نراها من خلال فن القول))(١٣)،ومع هذا يبقى المعنى ظاهرة مكشفة للجمال،ومحيرة في الوقت عينه، وهذه الحيرة لا يمكن أن تزيلها التفسيرات؛بل على العكس أن حيرتنا تزداد بوجود هكذا تفسيرات(١٤). أما فيمَ يخص تواجد الإنزياح الدلالي لدى شعراء همدان،فقد وجدنا العديد من الألفاظ المتغيرة بدلالاتها،ما بين العصر الجاهلي والعصر الإسلامي،فبعض الألفاظ تغيرت دلالاتها بالكامل،والبعض الآخر توسعت في دلالاتها...والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قول الشاعر : ((

قد وُجِدَ الأفدعُ صَعْبَاً جَلَدا أعْيَطَ من بيتِ أمينٍ صَرَدا

و ابنَ أخيهِ ذو القفا قد رَدَّا جَيْشَ العَكَارِ خائباً مُرْتَدَّا

بِبَطْنِ جَابٍ وكساهُ الحَدَّا حتى يُوَفِّي مائةً وعَدَّا))(١٥)

لجأ الشاعر إلى الإنزياح الدلالي في البنية الصرفية الإسمية المصدرية في خطابه الذي أستهله بمباشرة بمدح الأفدع عم الشاعر "ذو القفا"، فالبنية المنزاحة هي "صَرَدَا" على وزن "فَعَلَا"، المشتقة من الفعل صَرَد يَصْرِدُ، فدلالة صَرَدا المعجمية هي البَرَد الثلج(١٦)، في حين الصرفية تدل على صفة سلوكية محمودة نسبها للأفدع،والملاحظ أن الخطابَ محتوٍ على إنزياح قاعدي في جملة " أعيط(*) من بيتِ أمينٍ " وهي من عملت على فصل "صَرَدَا" من الجملة الأولى والأصل " وجد الأفدع صعباً جلدا صردا"، فتأخر صردا، هو من ولّد الكثير من الإحتمالات الدلالية،

وعموماً فالسياق نقل معنى صرد إلى السالم الخالص المعافى،بمعنى أن الأفدع صاحب العنق الطويل كل ما نُسِب إليه فطري " خالص به من غير معلم؛لهذا فهو محفوظ و مُؤمَن من الأذى أو الإصابة"،فالأفدع يحمل شجاعةً وجلادةً قل نظيرها،لهذا يقول أنه على الرغم من طوله الفارع لم تلحق به أي ضربة،في حين بيت أمين تعرَّض للخراب والدمار وهو ليس ببناء مشيّد عالٍ؛ كونه مرقع، فالمقارنة بين الأفدع وبيت أمين،أظهرت مرامي الخطاب،كما إن الإضافة عملت على تغيير الدلالة،للفظة "صَرَدا"، فهنا إشارة صريحة من الشاعر بأن نسبه خالص،إذاً فإختيار الشاعر للفظة المنزاحة هو مناسب تماماً للوزن العروضي،وقافية الخطاب الدالية المطلقة، ويبدو أن الغرض أسهم بدور كبير في إنزاحيها على إعتبار أنه حمل غرض المدح والإشادة بكل ما أنجزوه وحققوه ،سواء على صعيد حمايتهم للديار،أو قتلهم لجيش عَكار وردهم خائبين،فخطاب الشاعر هو رد على كل من يقلل من إنجازاتهم و إظهارهم بصورة صادقة تليق بهم،و ربما رد على جيش عكار،وتذكيرهم بالخيبة والخسران،إذاً الإنزياح أظهر المقصد الحقيقي من الخطاب الشعري ذي البنية الإيقاعية السريعة المناسبة تماماً للحرب.

فالخطاب الشعري كما هو واضح احتوى فكرةً واحدة وهي التمرس على قتل الأعداء من قبل الأفدع وابن أخيه " ذو القفا" مع بقائهم سالمين من غير أذى،وهذا يدل على أن عائلة الأفدع جميعهم يمتازون بالقوة والصلابة وليس هو وحده، فالشاعر ركّز على ما كل فعلوه في خطابه الشعري المباشر الإقناعي،ومن خلال ما سبق يتبيّن أن الشاعر عرض كل ما يؤكد على صحة قوله فطرح حججاً كثيرة توضح هذا،فكانت حججه متدرجة من الأدنى إلى الأعلى والمتمثلة بقتل" ذي القفا" مائة رجلٍ،فعرض كل هذا عبر الإستراتيجية الإقناعية، من خلال تركيزه على الوظيفة المرجعية السياقية ومثّلها بالأفدع وابن أخيه،إلى جانب الوظيفة الشعرية الجمالية والتي حملت رسالة الشاعر إلى كل من يحاول أن يسرق بريق بطولاتهم وإرجاع خصومهم إلى بطن الأرض التي نجبتهم بأقامة الحد عليهم،فالخطاب يُظهر لنا نفسية الشاعر المنفعلة جداً،إلى جانب حبه الكبير لهم،لهذا نراه يُدافع عنهم بكل شراسة وصلابة.

اعتمد الشاعر على عدد من الأسماء في بناء هيكلة خطابه ولاسيما في مقدمته،والأسماء هي،الأفدع،أمين،ذو القفا، العكار، فضلاً عن وجود المصادر الدالة على سلوكيات نفسية وجسمانية ومثّلها، صعباً، وجلدا،و صردا، والحدا، وعدّا، إلى جانب تواجد الفعل الماضي بكثرة والأفعال هي وُجِد، و أعيطَ،و كساهُ،و ردَّا، وهكذا،إذاً فهذه الحقول الدلالية المتنوعة عملت على تشكل الخطاب الشعري.أما بالنسبة إلى ما شكلته البنية المنزاحة في أقامة الوزن العروضي،فقد جاءت لفظة " صَـرَ دَ اْ" على وزن " تَـعِـلُـنْ"، وهذا الوزن شكّل الجزء الأكبر من تفعلية

بحر الرجز مُسْتَفْعِلُنْ،أما قافية الخطاب فقد جاءت مطلقة بحرف الدال المجهور المفتوح،وهذا يدل على علو صوت الشاعر بكل ما صرّح به إتجاه هذه الفارسين،وينبغي على الجميع تصديقه.

وبالتعريج على إسلوب الشاعر في خطابه فقد تميز بالصعوبة بعض الشيء ولاسيما في مسألة التقديم والتأخير باللفظة المركزية "صَرَدا"،ومع هذا كان فيه شيء من السهولة والبساطة في باقي أجزاء الخطاب،عرض كل ما يؤمن به بصورة صادقة وشاملة نوعاً ما لكنها تحتاج إلى المزيد من التوضيح، وكأن الشاعر ذو القفا رد جيش العكار فقط ولم يشارك بمعارك أخرى، ربما لأن الشاعر ركّز على هذه المعركة فقط، ومع هذا أفاد المتلقي بأن الأفدع و الشاعر ذو القفا كانا شجاعين مقدامين،فعملا على رد العدا خائبين، وبهذه المعركة وصل عدد من قتلهم ذو القفا إلى المائة... وأيضاً تقديم المفعول به على الفاعل.

وأيضاً قول الشاعر: سعيد بن قيس الهمداني(١٧): ((

أيَا شَرْحُ يا ابْنَ السِّمْطِ أصْبَحْتَ رَاجِعَا عَلَى العَقْبِ فانْظُرْ في رِجوعِكَ للعَقْبِ

أَخَذْتُ ابْنَ هِنْدٍ مِنْ عَلِيٍّ وبِئسَ ما وفيها و مِنْكَ ذاكيةُ اللهبِ

أَخَذْتُ طَلِيقَاً نَاصِبَاً بِمُهَاجِرٍ تَقِيٍّ لهُ في الناسِ خَطْبٌ من الخَطْبِ

على غَيْرِ شيءٍ كان مِنْهُ عِلْمَتَهُ وَلَمْ يَكُنْ لهُ في دمِ ابْنَ عفّانِ من ذنْبِ

وما كانَ إلَّا لازماً قَعْرَ بيتهِ قَلِيلَ التَجَنِّي في الحَوَادثِ و الغَضْبِ

إلى أن رماهُ الموتُ في جَوْفِ دَارِهِ فبايَعَهُ القومُ الذينَ هُمُ حَسْبِيْ

صِحَابُ رسولُ اللَّهِ في كُلِ مَوطنٍ أولئك أولَى بالهُدَى من بَنِيْ حَرْبِ

فَلمَّا أرادَ اللَّهُ تَغييرَ نِعْمَةٍ عَلَيْكَ بما غَيَّرتَ مِنْ نِعْمَ الرَّبِ

لَقِيْتَ رِجَالاً لَفَقُّوا لَكَ خُدْعَةً و لايْنتَ فيهَا بالعظيمةِ و الكِذْبِ

وَصَدَّقْتَ قوماً لمْ يَرُوا أو يُعاينُوا ولوْ عاينُوا كَانُوا كَمَنْ غَابَ في جُبِّ

فقلتُ الذي قَالُوا بِغيرَ رَوِيَّةٍ و لا سَمْعَ أُذِنٍ من بَعِيد و لا قُرْبِ

فسبحانَ مِنْ أرْسَى ثَبِيْراً مَكَانُهُ أ يُرْضَى من الرَّأسِ المُقدَّمِ بالعَجَبِ

وَيَرضَى ابنُ هِندٍ مِنْ صِحَابِ مُحَمَّدٍ بِـرَجْرَجَةٍ رَاضِـينَ بالأَكْـلِ و الشُّـرُبِ))(١٨)

لجأ الشاعر في خطابه إلى إنزياحات متنوعة، أولها الإنزياح النيابي العروضي في مقدمة خطابه الشعري وخاتمته في البنيتين الإسميتين،"شَرْحُ" على وزن " فَعْلُ، و رَجْرَجة على وزن "فَعْلَلَة"، فيمَ يخص الإسم الأول فأصله شَرْحَبِيْل على وزن"فَعْلَلِيْل"،وهذا العدول بالإسم سببه الوزن العروضي،إذ لو ذكره إسمه كاملاً لما تمكّن من إتمام بيته الشعري على ذات البحر،لهذا نلاحظ أنه ذكر اسمَ أبيه للإشارة إلى إسم شرحبيل،على أعتبار أن الإسم المذكور المصدر" شَرْح"،يدل على حدوث عملية الشرح والتفصيل، أما بنية الإسم الثاني المصدر رجرجة، فعني بها الجماعة،فعدول الشاعر عن اللفظة المألوفة، سببها السياق كون الجماعة المنتمية لمعاوية هي جماعة شريرة لا طائل من ورائها سوى الأكل والشرب،

أما الإنزياح الآخر الذي حمله الخطاب فهو الإنزياح الدلالي في البنى الإسمية،" ناصباً على وزن فَاعِلاً، و ثبيراً على فَعِيْلاً، و العَجَب على وزن فَعَل، فالملاحظ على الأسماء الأول والثاني مشتقات، في حين الإسم الثالث مصدر، نبتدأ بالناصب وتعني توليه أمر أو عمل ما،وهذا العمل يرافقه التعبُ والمشقةُ، لكن هنا تغيرت دلالته إلى من يُناصِب العداء أو المخالفة لعلي وآل بيته "عليهم السلام"، أما " ثبير" فتعني جبل بمكة(١٩)، لكنَّ الشاعر نقلها وصف وتشبيه لعلي " عليه السلام" بأنه المواظب على الإيمان والمعتاد على إقامة حدود الله من دون تغيير أو تبديل،وهذا أوضحته لفظة " مكانه"، أما " العَجَب" فمعناها إنكار الشيء لقلة الإعتياد عليه، لكن التشبيه هنا عمل على تغيير دلالته إلى الذنب، أي إستواء الرأس والمتمثل بعلي " عليه السلام"، بمن هم أذناب وهم الناصبيّين المخالفين لآوامره، إذاً إنزياحات الشاعر أوضحت مقصده من خطابه الشعري ذو البنية الإيقاعية البطيئة،الذي حمل غرض الوعظ والإرشاد وتنبيه المخاطب على أفعال خاطئة، ارتكبها بحق أمير المؤمنين علي " عليه السلام".

فخطاب الشاعر المباشر إحتوى على فكرتين وهي المقارنة بين من إتبع الهدى، ومن اتبع الردى،فالخطاب فيه زجر وبيان أن المنأويين عن الحق مخدوعون، عندما ابتعدوا عن أصحاب الرسول " صلى الله عليه وآله" الحقيقيين، ومن ثم فهم المغيرون لنعم الله عليهم بأنفسهم،ولو أبصروا الحق وعقلوه كانوا زاهدين و ورعين، والثانية أن علياً عليه السلام لم يكن له ذنب في مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفّان،كما روّج إلى هذا بعض الناس، وبني حرب، أي المناصرين لمعاوية بن أبي سفيان،فعرض كل هذا عبر الإستراتيجية توجيهية التي أبانت مقاصده،أما الوظائف التوصلية ، فالشاعر ركّز في خطابه على المخاطَب الوظيفة الإنفعالية، إلى جانب

الوظيفة السياقية، فضلاً عن الوظيفة الشعرية الجمالية والتي حملت رسالة الشاعر إلى شرحبيل، فالخطاب يُظهر لنا نفسية الشاعر الحزينة والمتألمة بالمصير الذي آل إليه شرحبيل،لهذا حاول جاهداً إرجاعه إلى ما كان عليه.

فمصادر الشاعر متعددة بدورها بين الإسم والفعل، والإسم حضر بأنواعه منها دل على إنسان نحو " شرح بن السمط، وعلي، محمد،، وابن عفّان، هند" وما يدل على الجمع نحو"صحاب، رجال،القوم، الحوادث" ومنها ما دل على المصدر " الكذب، العظيمة،خدعة، الموت، الهدى، قرب، تغيير، نعمة" وغيرها، في حين الفعل الماضي كان الأكثر حضوراً لأن الشاعر يُذكِر المخاطب بما قام من أفعال غير محمودة عقباها،والأفعال هي"لاينت،أراد،لقيت،صدّقت،غيَّرت" وغيرها من الأفعال.. التي أسهمت في بناء هيكلية الخطاب الشعري.

لقد حمل الخطاب الشعري نظام الشطرين المتناظرين،بوزن بحر الطويل،فتفعيلات البنى الصرفية المنزاحة، هي(نَـاْصِبَنْ : لُـنْ+مَفَاْ ، ثَـبِـيْرَنْ : فَـعُوْلُنْ، لْـعَـجَبِـيْ: نْ+ فُعُلِنْ، رَ جْـرَ جَـتِنْ: عُوْلُ + مَـفَـاْ) لقد شكلت هذه البنى جزءاً لابأس به من تفعيلات البحر،أما قافية الخطاب فقد جاءت متحركة بحرف الروي الباء، وهذا الكسر، ينعكس على المصير إلى آل إليه شرحبيل ومن معه، فضلاً عن حالة الألم والحزن الكبير الذي بدا واضحاً على نفسية الشاعر بصورة عامة.

فإسلوب الشاعر كان رائعاً وشاملاً لأمور عدة،تعمّد قصداً بعدم بيانها وإيضاحاً، ولاسيما مسألة تشبيهه للناصبيين بعدم مناصرتهم للحق، وإتباعهم الباطل،لهذا يمكننا إطلاق سمة الصدق و حرقة القلب على الخطاب الوعظي بإمتياز،ومن ثم أفاد المتلقي بأن الطريق الذي سلكوه هؤلاء لا خير منه حتماً، ولا يرضي الله، ولا النبي محمد " صلى الله عليه وآله".

و شاهد آخر، على تغيُر الدلالة، لـ قيس بن سعيد أيضاً : ((

ألا يا عمرو، عمرو بنِي حُصينٍ و كلٌّ فَتى سَتُدركُهُ المَنُونُ

أتَرْجُو أنْ تَنَالَ إمامَ صِدْقٍ أبا حسَنٍ و ذا ما لايكُونُ

لَقَدْ بَكَتِ السَّكُونُ عَليكَ حَتَّى وهَتْ مِنْهَا النَّواظِرُ و الجُفُونُ

أَلَا أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بن حَرْبٍ ورَجْمُ الغَيْبِ يكشِفُهُ اليقينُ

بإنَّا لا نَزالُ لَكُمْ عَدَّواً طَوَالَ الدَّهْرِ ما سُمِعَ الحَنِينُ

إليـكُمْ أنْ والـيـنَـا عـلـيٌّ أَبٌ بَرٌّ وَ نَحـنُ لـهُ بَـنُـونُ

وإنَّـا لا نُـريـدُ سـواهُ يـومَـاً وذَاكَ الـرُّشْـدُ و الحّقُّ المُبينُ

وإنَّ لـهُ العِراقَ و كُـلَّ كَبْشٍ حَـديدِ القَـرْنِ تَرْهَـبُهُ القُـرونُ))(٢٠)

عمد الشاعر في خطابه إلى الإنزياح النيابي في البنية الإسمية " حَرْب" على وزن "فَعْل"، والسبب العدول هو أن معاوية عُرِف بإختلاق المشاكل وعدم الثبات على المصالحة والهدنة المعقودة بين طرفي المسلمين، ونلاحظ أن الخطاب قد احتوى على إنزياح آخر، وهو الإنزياح الدلالي، إذ إستعار الشاعر لفظتي " كَبْش على وزن فَعْل و قَرْن على وزن فَعْل الدالة على الحيوان، إلى الإنسان، فالأولى خرجت إلى قائد الكتيبة، والثانية دلت على رأسه، والسبب في هذا التغيُّر هو السياق؛ فالشاعر بذل قصارى جهده لإظهار نفسه ومن معه بأنهم شجعان أبطال يرهبون الأعداء أياً كانوا،إذاً فالإنزياح في الخطاب الشعري ذو البنية الإيقاعية السريعة،عمل على إظهار مقصدية الشاعر بشكل واضح.

تضمن الخطاب فكرة مركزية، وهي أن الموت ملحق بالجميع، وكل فتى ستدركه المنون، وليس هناك من داعٍ للفرحة والشماتة وقرة العين، بمقتل الفرسان، وهذا ما رأته السكون و الرعين عندما فُجِعت بفرسانها،لهذا ينبغي على معاوية ومن معه أن يدركوا حقيقة ولاءِ قيسٍ ومن معه للولي علي الأب البر، كما عبّر بذلك الشاعر، و لآل بيته " عليهم السلام" جميعهم،ولاسيما الحسن الذي أُوكل إليه الخلافة من بعد أبيه، فالوفاء لآل البيت أبدا الدهر سواء كان علياً "عليه السلام" حياً أم ميتاً،فقيس ومن معه مدافعون عن آل بيت النبي، وإن كل العراق لهم فهم أحق بالإتباع والولاية،فقد طرح كل هذا عبر الإستراتيجية التضامنية، فالشاعر متضامن مع كل ما فعلوه آلُ البيت النبي " صلى الله عليه وآله"، وكلامه هذا جعل الوظيفة السياقية ، وهي الأكثر حضوراً بالمقارنة مع الوظائف الآخرى، إلى الوظيفة الجمالية الشعرية، والتي حملت رسالة المبدع إلى عمرو بن الحُصين، فالخطاب يُظهر لنا شاعراً قوياً شجاعاً مقداماً حزيناً، ثابتاً على ولاية أمير المؤمنين، حتى وإن قُتِل،لا يتزحزح ولائه وإيمانه به أياً كانت الإغراءات.

فمصادر الشاعر مأخوذة من الحقل الدلالي الدال على الجمع" النواظر، العيون،المنون،الجفون، القرون، فرسانها" وما دل على الإسم نحو " علي، أبا حسن، معاوية، عمرو بن حصين، السكون، الرعين، العراق، حديد" ،و الفعل الدال على الزمن الماضي نحو " فُجعت، وهت،قرَّت،بكت" والدال على المستقبل " ترهبه، ترجو، تنال" وغيرها،

فهذه المصادر هي من شكلت لنا الخطاب الشعري الذي حمل غرض المدح لعلي وابنه الحسن " صلوات الله وسلامه عليهم".

أما بالنسبة إلى نظام الخطاب الشعري،فجاء نظام الشطرين المتناظرين،بوزن بحر الوافر،فتفعيلات البنى المنزاحة هي(كَبْشنْ : فَـعْلِنْ، قَـرْنِ: ثُـنْ+ مَـ) فهذه التفعيلات شكلت جزءاً ضئيلاً في بناء الخطاب،أما قافيته فجاءت مضمومة بحرف الروي النون،وهذا الضم يدل على إنضمام الشاعر وأصحابه إلى علي و أولاده " عليهم السلام" مدى الدهر.

فإسلوب الشاعر كان مميزاً ، فالحزن الذي خيّم على أطراف الخطاب جعله غير مدرك لحقيقة إستشهاد أمير المؤمنين " عليه السلام" لهذا نراه يُظهر الحب الكبير الذي يكنه بني السكون عليه جرّاء فقدهم له، ولكنه في الوقت عينه يرى في ابنه الحسن مكلماً لمسيرة أبيه، لهذا أشار بكل فخر بأنه باقٍ على الولاية؛ لأنهم أصل الحق والرشاد، ومن نأى عنهم حصل على الذل والهوان لامحالة،وهذه الغاية التي حملها الخطاب، والتي نبّه الآخرين عليها، عموماً كان خطاباً شاملاً وصادقاً لكل ما أراد الإشارة إليه.

وشاهد آخر للشاعر ذاته، سعيد بن قيس يوم الجمل : ((

أَيـةُ حَرْبٍ أُضرِمَتْ نِيرانُها

و كُسِّرَتْ يـوَمَ الوغَـى مُـرَّانُها

قُـلْ لِلوَصِيِّ أَقْبَلَتْ قحطـانُها

فـادْعُ بِهَا تُكففكهـا هَمَدانُـهَا

هُـمُ بَـنُـوهَـا و هُـمُ إخـوَانُـهَـا))(٢١)

لجأ الشاعر في خطابه إلى الإنزياح الدلالي في البنية الإسمية المصدرية " الوَصـيَّ" على وزن " فَعِل" المحتوية على ياء النسب، وبهذا إنتقلت دلالة الإسم من العامة الدالة على المتكلف برعاية من هم دون سن التكليف إلى الخاصة وهي الولاية والسير على نهج علي"عليه السلام"،إنطلاقاً من الحديث النبي" صلى الله عليه وآله":((يا علي،أنت أمير المؤمنين،وإمام المتقين،ياعلي، أنت سيّد الوصيين، ووارث علم النبيين وخير الصديقين،وخير السابقين))(٢٢)،إذاً عمل الإنزياح على بيان مقصد الشاعر من خطابه ذو البنية الإيقاعية السريعة جداً المناسبة لحالة الحرب.

لقد حمل الخطاب الشعري فكرة واحدة وهي أنَّ الشاعر يطلب من أمير المؤمنين "علي" (عليه السلام) بتجميع قبيلة قحطان على يد أبناء همدان؛ لأنهم على صلة قرابة بهم، للمشاركة في الحرب الدائرة، بمعنى أن حق قحطان على همدان هو رعايتها، وإعانتها، متلما "علي" وصي على المسلمين، فالخطاب هنا جاء مباشر بإستراتيجية توجيهية بوساطة فعلي الأمر" قل، ادع"،أما الوظائف المسيطرة في الخطاب، فكانت الوظيفة الإنفعالية الموجه إلى المخاطب وهو الوصي هي المسيطرة، إلى جانب الوظيفة الشعرية الجمالية والتي حملت رسالة الشاعر،فالخطاب يُظهر لنا حماسة و حباً كبيراً يكنه الشاعر إلى قبيلة قحطان؛ رغبة منه في ضمهم إليه، وإلى همدان بصورة عامة.

فمصادر الشاعر، مأخوذة من الحقل الدلالي الدال على الجمع نحو"مرانها، نيرانها،بنوها،أخوانها" ، والدال على الإسم "قحطانها،همدانها،حرب،الوغى" فهذه المصادر عملت على بناء الخطاب الشعري، وجميعها مرتبطة بغرضه الذي خرج إلى المدح.

لقد جاء الخطاب الشعري بنظام الشطر الواحد، بوزن بحر الزجر،فتفعيلة البنية المنزاحة هي(لْـوَ صِيْـيَ : فـعـِلُـنْ+ مَـ) فهذه البنية أدت دوراً ضئيلاً في تفعيلة البحر،أما قافية الخطاب فجاءت مطلقة بحرف الروي النون،وهذا الإطلاق يدل على علو صوت الشاعر المناسبة للحرب.

فإسلوب الشاعر جاء مميزاً واضحاً نوعاً ما، إلا أنه لم يخلو من الصعوبة ولاسيما في بيان معنى مُرانها(٢٣)، ونطق تكففكها،فضلاً عن الشمولية والمصداقية،وبهذا أفاد المتلقي بأن قحطان هي الأخرى كان لها دورُ في حرب الجمل أيضاً، مثل همدان.

الخاتمة :

فإستحضار المعاني في ذهن الشاعر أمر في غاية الضرورة، لهذا كان النقاد العرب قديماً في طليعة المعارضين للأشكال اللغوية الجاهرة،غير المصحوبة بتطور ما، والإنزياح الدلالي هو نوع من الإتساع والمجاز لدى "سيبويه" وغيرها من العلماء،ومن مزاياه أيضاً بأنه لا يُخاطب العقل بل المشاعر والعواطف والأحاسيس أيضاً،وأجمعوا العلماء بأنَّ المجاز هو أبلغ من الحقيقة،كما وإنه ظاهرة مكشفة ومظهرة للجمال،ومحيرة في الوقت عينه،وهذه الحيرة لا يمكن أن تزيلها التفسيرات؛بل على العكس أن حيرتنا تزداد بوجود هكذا تفسيرات،وتطرفوا في بيان أن بعض الألفاظ التي تحمل معانٍ عميقة وإيحائية لا يصح تواجدها في أماكن معينة من أجزاء القصيدة دون أخرى،وما ينبغي التأكيد عليه هو أن التطور الذي رافق الكثير من الألفاظ أسبابه عديدة منها أمور ثقافية و

دينية وإجتماعية وغيرها، أما من وروده في شعر همدان،فقد وردت الكثير من الألفاظ المتغيرة دلالتها تبعاً للسياق،وأخرى تبعاً لأمور متنوعة كأن تكون دينية وثقافية كما أشرنا، وهذا ما أوضحته الشواهد...

---

[١]) ينظر: الإنزياح الدلالي في الألفاظ العربية معجم العين نموذجاً (رسالة ماجستير)، صونيا لوصيف، و سارة كرميش ٢٨.شكل القصيد العربية، د. جودت فخر الدين ١٨٠. و علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر ٢٣٥، و دينامية‌النص، د. محمد مفتاح ٤٥.* والدليل أن شعراء كثر قد مات شعرهم بموتهم نتيجة عدم حفظه أو تدوينه من قبل الناس،ولاسيما في العصر الجاهلي.. وهذا ما أكدّت عليه الكثير من المصادر العربية.

[٢]) البحث الدلالي في كتاب سيبويه،لخوش جار الله حسين ٢٩٧.

[٣]) الحجاج في الخطاب مقاربات تطبيقية، د.عبد الطيف عادل ٥٠.

[٤]) ينظر : الأسس الجمالية في النقد العربي، د. عزالدين إسماعيل ٣٤٧. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني ٣٤٠، و وفي علم الدلالة – دراسة تطبيقية، د. عبد الكريم محمد حسن جبل ٣٥. والمشاكلة والاختلاف،عبدالله الغذامي ٤٣-٤٤.

[٥]) الصناعتين، أبو هلال العسكري ١٣٩.

[٦]) دلائل الإعجاز، الجرجاني، قرأه وعلّق عليه : محمود محمد شاكر ٥٤.

[٧]) شكل القصيدة العربية في النقد العربي ، د.جودت فخر الدين ٦٥.

[٨]) ينظر:علاقة النقد بالإبداع الأدبي، د. ماجدة حمودة ١٥، و دلائل الاعجاز،عبد القاهر الجرجاني٥٠.

[٩]) الصاحبي،ابن فارس ١٩٨.

[١٠]) ينظر: النظرية الشعرية، جان كوهن ٣٦٩- ٣٧٣، ٣٨٠.

[١١]) المصدر نفسه ٣٨٧.

[١٢]) ينظر: علم الإسلوب، صلاح فضل ٢٢٣، وفي علم الدلالة، عبد الكريم محمد حسن جبل ٣٣، وعلم الدلالة أحمد مختار عمر٢٣٧، و دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان ١٥٧-١٦٠.

[١٣]) مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة، محمد بركات إبو علي ٦٨، نقلا عن: الإسلوب عند نقاد القرن الرابع الهجري(رسالة ماجستير)، صفاء محمد ضياء الدين ٨١.

[١٤]) ينظر: الأسس الجمالية في النقد الأدبي،د.عز الدين إسماعيل ١٨٠، ونظرية الأدب-نصوص مترجمة، د. أحمد بوحسن ٥٨.

[١٥]) شعر همدان ٣١٣.

[١٦]) ينظر : لسان العرب مادة (صرد).

*) فالتغير أيضاً شمل الفعل " أعيط" فهو هنا بمعنى أطول،وليس بمعنى صرخ .

[١٧]) هو سعيد بن قيس بن زيد الأصغر بن قيس بن زيد _الملك_بن مرب ابن معد يكرب بن زود سيف بن عمرو بن السبيع بن السبيع لن صعب بن معاوية بن كثير بن جشم بن حاشد الهمداني. يتصل نسبه بملوك حاشد. وهو صاحب أمر همدان بالكوفة

مال برواياتها الى علي بن ابي طالب ،رضي الله عنه ،وله في نصرته مواقف مشهودة ووقائع معدودة. ينظر: الإكليل ١٠\٤٩،٤٧، و الحيوان ٥\٣٣١.

[١٨]) شعر همدان٣٣١- ٣٣٢.

[١٩]) ينظر : لسان العرب ، مادة (شرق) ، و تاج العروس ، مادة (شرق) .

[٢٠]) شعر همدان ٣٣٣-٣٣٤.

[٢١]) شعر همدان ٣٣٤.

[٢٢]) مائة منقبة من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ابن شاذان ٥١.

[٢٣]) جمع مرن، وهي الرمح الصلب، ينظر : لسان العرب مادة " مرن" .

المصادر والمراجع:

- الأسس الجمالية في النقد الأدبي،عرض وتفسير ومقارنة، د.عز الدين إسماعيل،د.ط، دار الفكر العربي- القاهرة، ١٩٩٢م.
- الأسس الجمالية في النقد الأدبي،عرض وتفسير ومقارنة، د.عز الدين إسماعيل،د.ط، دار الفكر العربي- القاهرة، ١٩٩٢م.
- الإسلوب عند نقاد القرن الرابع الهجري، صفاء محمد ضياء الدين، إشراف: الدكتور مصطفى محمد أبو شعالة، رسالة ماجستير، جامعة مصراته-الجمهورية الليبية، ٢٠٠٢-٢٠٠٣م.
- الأكليل، الحسن بن أحمد الهمداني ت(٣٣٤)هـ، تحقيق : محب الدين الخطيب،د.ط، القاهرة ، ١٣٦٨هـ.
- الإنزياح الدلالي في الألفاظ العربية معجم العين إنموذجاً ، صونيا لوصيف ، وسارة كرميش، إشراف : يمينة ابن مالك ، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة – الجزائر ، ٢٠١١م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، د.ط ،دار الكتب العلمية-بيروت،لبنان، د.ت.
- البحث الدلالي في كتاب سيبويه،لخوش جار الله حسين،ط١، دار دجلة- المكتبة الأردنية الهامشية، ٢٠٠٧م.
- الحجاج في الخطاب مقاربات تطبيقية،د. عبداللطيف عادل ،ط١،مؤسسة آفاق-مراكش،٢٠١٧م.
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن الجاحظ،شرح وتحقيق:عبد السلام هارون، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده- مصر، ١٩٦٥م.
- دلائل الإعجاز،عبد القاهر الجرجاني ت(٤٧٤)هـ، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر،د.ط، مكتبة الخانجي-القاهرة، د.ت.
- دلائل الإعجاز،عبد القاهر الجرجاني ت(٤٧٤)هـ، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر،د.ط، مكتبة الخانجي-القاهرة، د.ت.

- دور الكلمة في اللغة،إستيفن أولمان، تر: كمال بشر، ط١، دار غريب للطباعة والنشر، ١٩٩٧م.
- دينامية النص،تنظير وإنجاز، د. محمد مفتاح ،د.ط، المركز الثقافي العربي- الرباط،
- شعر همدان وأخبارها في الجاهلية والإسلام، جمع وتحقيق ودراسة : د. حسن عيسى أبو ياسين،ط١، دار العلوم – الرياض، السعودية، ١٩٨٣م.
- شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري ، د. جودت فخر الدين ،ط١، دار الآداب –بيروب ، ١٩٨٤م .
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، للعلامة الإمام : أبي الحسين أحمد بن فارس الرازي، حققه وضبط نصوصه : د. عمر فاروق الطبّاع،ط١، مكتبة المعارف- بيروت، ١٩٩٣م.
- الصناعتين الكتابة والشعر،أبو هلال العسكري، تحق : محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١،دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٢.
- الصناعتين الكتابة والشعر،أبو هلال العسكري،تحق:محمد علي البجاوي،ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١،دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٢.
- علاقة النقد بالأبداع الأدبي، د. ماجدة حموَّد،د.ط، منشورات وزارة الثقافة- دمشق ، سوريا، ١٩٩٧م.
- علم الإسلوب- مبادئه وإجراءته ، د.صلاح فضل، ط١، دار الشروق- القاهرة ، ١٩٩٨م.
- علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر،ط٥، عالم الكتب- القاهرة ، ١٩٩٨م.
- في علم الدلالة – دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، د. عبدالكريم محمد حسن جبل،د.ط، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧م.
- في علم الدلالة – دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات،د. عبدالكريم محمد حسن جبل،د.ط، دار المعرفة الجامعية،١٩٩٧م.
- لسان العرب،ابن منظور الأنصاري، ط٣،دار صادر – بيروت، ١٤١٤هـ.
- مائة منقبة من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والإئمة من أولاده (عليهم السلام) ، الشيخ الجليل: أبي الحسن محمد بن أحمد المعروف بإبن شاذان، تحقيق: نبيل رضا علوان، ط٢، مطبعة الصدر- قم المقدسة،١٤١٣هـ.
- المشاكلة والاختلاف،عبد الله الغذامي،،ط١،المركز الثقافي العربي،بيروت،١٩٩٤م.
- نظرية الأدب – القراءة،الفهم،التأويل- نصوص مترجمة،د. أحمد بوحسن، دار الأمان – الرباط، ط١، ٢٠٠٤م.
- النظرية الشعرية ، جان كوهن، ترجمة وتقديم: د. أحمد درويش،ط٣، دار غريب- القاهرة، ١٩٩٩م.